**المحاضرة 01: محددات ومفاهيم أولية حول الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية**

* **مدخل عام:**

من المهم بأن ممارسة الحياة البشرية وتنظيم سبل العيش وما ينتجه الإنسان من الأشكال المادية والفكرية والحضارية،هو شيء لصيق به دون غيره في المملكة الحيوانية، لأنه مزوّد به في فطرته وإدراكه وذلك بالقدرة على خلق هذه الإنتاجات المتعددة منذ نشأته الأولى، وفي تطوره غير الحقب التاريخية المختلفة.

من هنا بدأـ سؤال الأنتروبولوجيا الأول، ماذا أبدع هذا الإنسان وماذا أنتج؟.

فهذا الكائن الفريد، كان دائما ولا يزال موضع التأمل والدراسة من قبل كثير من العلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء، فمنذ قديم الزمان، لاحظ الإنسان بصفة عامة الفروق القائمة بين شعوب الجنس البشري، واهتم بمعرفة الطبيعة الإنسانية، وتفسير الاختلافات في الملامح الجسمية، ولون البشرة، والعادات والتقاليد، والديانات والفنون وغير ذلك من مظاهر الحياة، وفي إطار هذا الاهتمام تطورت الدارسات عبر العصور، وتبلورت بنشأة فرع جديد من فروع المعرفة اصطلح على تسميته بـ"الأنتربولوجيا-Anthropology"، فما هي الأنتروبولوجيا؟، وما هو موضوعها؟ وكما نعلم فإن لكل علم عادة مجموعة من الظواهر التي يعكف الباحثون على دراستها بالوصف والتحليل والتفسير.

1. **مفهوم الأنتروبولوجيا:**

يجمع الباحثون في هذا العلم أنه حديث العهد إذا ما قورنت ببعض العلوم الأخرى كالفلسفة والطب والعلوم التجريبية...الخ، إلا أن البحث في شؤون الإنسان والمجتمعات الإنسانية قديم قدم هذا الإنسان، منذ أن وعي ذاته، وبدأ يسعى للتفاعل الايجابي مع بيئته الطبيعية والاجتماعية، وقد أسهمت الرحلات التجارية والاكتشافية، وأيضا الحروب والحملات الاستعمارية، بدور هام في حدوث الاتصالات المختلفة بين الشعوب والمجتمعات البشرية حيث قربت فيما بينها، وأتاحت معرفة كل منها بالآخر، ولاسيما ما يتعلق باللغة والتقاليد والقيم... ولذلك فمن الصعوبة بمكان تحديد تاريخ معين لبداية الأنتروبولوجيا.

إن لفظة الأنتروبولوجيا-Anthropology ، هي كلمة انجليزية مشتقة من الأصل اليوناني المكون من جزأينأنتروبوس-Anthropos ومعناه "الإنسان"، ولوجوس-Logos ومعناه "علم"، وبذلك يصبح معنى الأنتروبولوجيا من حيث اللفظ "علم الإنسان"، أي العلم الذي يدرس الإنسان، ولذلك تعرف الأنتروبولوجيا بأنها: "العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وانساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة، ويقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكا محددا".([[1]](#footnote-1))

أما من حيث موضوع هذا العلم ومن خلال الدراسات الأنتروبولوجية، فإن الدارسين والعلماء قد أخذوا التعريف اللفظي لهذا العلم مأخذ الجّد، وأصبح موضوعه الأساسي هو دراسة الإنسان وأعماله، أي كل منجزاته المادية والفكرية، ولهذا فإن الأنتروبولوجيا هي أكثر العلوم التي تدرس الإنسان وأعماله شمولا على الإطلاق، فهناك دلائل وشواهد عديدة على هذا الشمول: فالأنتروبولوجيا تجمع في علم واحد بين نظرتي كل من العلوم البيولوجية، والعلوم الاجتماعية، فتركّز مشكلاتها من ناحية على الإنسان كعضو في المملكة الحيوانية، وعلى سلوك الإنسان كعضو في المجتمع من ناحية أخرى.([[2]](#footnote-2))

ويتضح مما سبق أن الأنتروبولوجيا تدرس الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا، فلا تدرسه ككائن وحيد بذاته، أو منعزلا عن أبناء جنسه، إنما تدرسه بوصفه كائنا اجتماعيا، يحيا ضمن إطاره الاجتماعي، الزماني، والمكاني.

1. **طبيعة الأنتروبولوجيا:**

تأخذ الأنتروبولوجيا مباحثها النظرية، وأصولها المعرفية من عدة حقول معرفية متجاورة، أساسها هي العلوم الاجتماعية حيث استخدم علماء الأنتروبولوجيا بعض الأساليب التي طورتها العلوم الاجتماعية، لكنّهم في المقابل قلّما اضطروا إلى انتظار تطور مثل هذه الأساليب، والواقع أنّ إسهامهم في تطور العلوم الاجتماعية لا يقل شأنا عن إسهام هذه العلوم في تطور الأنتروبولوجيا، واستنادا إلى هذه المنطلقات، فقد حددت الباحثة الأمريكية "مارغيت ميد" طبيعة علم الأنتروبولوجيا وأبعاده بقولها: "إننا نصنف الخصائص الإنسانية للجنس البشري البيولوجية والثقافية كأنساق مترابطة ومتغيرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة، كما نهتم أيضا بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجية وتحليلها إضافة إلى البحث في الإدراك العقلي للإنسان، وابتكاراته ومعتقداته، ووسائل اتصالاته وبصفة عامة نسعى نحن الأنتروبولوجيون إلى تفسير نتائج دراستنا والربط فيما بينها في إطار نظريات التطوّر، أو ضمن الوحدة النفسية المشتركة بين البشر"([[3]](#footnote-3)).

ومنه فإن الأنتروبولوجيا ترتكز في دراستها على الإنسان، وعلى سلوكه، وتحديد أوجه الشبه والاختلاف بينه وبين الحيوانات الأخرى، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، فتهتم الأنتروبولوجيا بدراسة الإنسان الذي يعيش في مجتمع أو في جماعات، كما يدرس أفكار ومعتقدات هذا الإنسان، ومستوى ثقافته وتطورها، بالاعتماد على نظريات التطور التي نشأت وازدهرت في أوروبا، وخاصة بريطانيا على يد العالم الانجليزي **تشارلز روبرت داروين**.

ومن خلال طبيعة وموضوع الأنتروبولوجيا، فقد انقسمت إلى قسمين أساسيين: القسم الأوّل يبحث في الناحية البيولوجية للإنسان وهو ما يطلق عليه الأنتروبولوجيا الطبيعية والقسم الثاني يبحث في أعمال الإنسان وسلوكه وثقافته ويعرّف الأنتروبولوجيا الثقافية والحضارية والاجتماعية.

1. **الأنتروبولوجيا الطبيعية:**

وتسمى كذلك الأنتروبولوجيا البيولوجية، حيث تعرضت إلى تغيرات جمة بالنظر إلى كونها أولى الدراسات الأنتروبولوجية التي ظهرت في سيق نشوء وتأسيس هذا العلم الحديث وتدرس الأنتروبولوجيا الطبيعية الناحية البيولوجية والفيزيولوجية للإنسان وللجماعات البشريةأي أنها تدرس الإنسان كنتاج لعملية التطور التي عرفها، وكذا دراسة وتحليل الجماعات البشرية عبر مختلف العصور، كما يتم الربط بين فهم الإنسان كنتاج لعملية التطور وبين فهم تطور كافة أشكال الحياة، وكذلك فهم طبيعة الحياة نفسها.

ويركز المتخصص في الأنتروبولوجيا البيولوجية على تاريخ السمات الفيزيقية للإنسان القديم، ويفتش في أنحاء مقارنات دقيقة بين بعض الأشكال الأولى للإنسان، وبعضها الآخر من ناحية، وبينها وبين الإنسان الحديث من ناحية أخرى.([[4]](#footnote-4))

وظهر مصطلح الأنتروبولوجيا أولا في كتابات علماء الطبيعة إبان القرن الثامن عشر لتعني دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان، ووضعت الكثير من المؤلفات العلمية في هذا الإطار لعلماء طبيعيين، منهم عالم الطبيعة الألماني **جوهان بلوميناخ** الذي ادخل مصطلح الأنتروبولوجيا في منهج تدريس التاريخ الطبيعي بالمقررات الجامعية، كما استخدمه في كتابه الذي صدر عام 1795م بعنوان "عن التنوعات الطبيعية الجوهرية بين البشر"، كما يظهر الفيلسوف الألماني **إيمانويل كانت** الذي أشاع استخدام هذا المصطلح بعد صدور كتابه "الأنتروبولوجيا من منظور علمي" ولا يزال استخدام كلمة الأنتروبولوجيا من منظورها الطبيعي سائدا في أوربا إلى حد كبير، إلا أن موضوعات الأنتروبولوجيا الطبيعية قد اتسعت وتنوعت لتشتمل الدراسات المقارنة بين الإنسان والحيوان، ودراسة تنوع السلالات البشرية، والخصائص الوراثية للشعوب، علاوة على الدراسة المقارنة بين الإناث والذكور من حيث الصفات التشريحية، والعمليات البيولوجية، وصلة ذلك بتحديد الوظائف أو الأدوار الاجتماعية لكل نوع([[5]](#footnote-5)).

وقد أثبتت الأنتروبولوجيا الطبيعية الكثير من الظواهر الخاصة بنشأة الإنسان وطبيعته، ومراحل تطوره من الناحية الجسمانية والفيزيولوجية، كما أثبتت أن الشعوب البشرية بأجناسها المتعددة تتشابه إلى حد التطابق في طبيعتها الأساسية، ولاسيما في النواحي العضوية والحيوية.

ويمكن القول أن الأنتروبولوجيا الطبيعية إنما تدرس تلك الخصائص والملامح العامة للبناء الفيزيقي للإنسان، أو ما يسمى بالبناء العضوي للإنسان، أي أنها تدرس التاريخ العضوي للإنسان الطبيعي، مع الأخذ في الحسبان خصائصه العضوية المختلفة، وملامحه البنائية الحالية أو المنقرضة بما يعطي في النهاية تحديد المراحل التطورية والارتقائية للجنس البشري.

1. **()** - عيسى الشماس: مدخل إلى علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص13. [↑](#footnote-ref-1)
2. **()**- محمد الجوهري وعلياء شاكر: مقدمة في دراسة الأنتروبولوجيا، (د.ط)، القاهرة، 2007، ص18.\_ [↑](#footnote-ref-2)
3. **()** – أنظر: عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان، مرجع، سابق، ص15-16. [↑](#footnote-ref-3)
4. (**)**- محمد الجوهري، علياء شاكر: مقدمة في دراسة الأنتروبولوجيا، مرجع سابق، ص26. [↑](#footnote-ref-4)
5. **()** - حسين فهيم: قصة الأنتروبولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، (د.ط)، عالم المعرفة، الكويت، 1986، ص15. [↑](#footnote-ref-5)